

الفصل الثاني

التصنيع والتصنع

١

اشتداد موجة التصنيع

رأينا - في الفصل السابق - كتاب الدواوين في القرن الرابع للهجرة، وكل منهم يحاول أن يبلغ من تصنيعه وتجميله لأساليبه ما لم يبلغه كاتب آخر من كتاب الحكام والأمراء المجاورين له، إذ كان هؤلاء الأمراء والحكام يعتدون بالكتابة المصنّعة التي شاعت في تلك العصور، وكان كل منهم يحاول أن يكون في بلاطه ودواوينه أهم كاتب في عصره حتى تشتهر دولته بتلك الطرف الزخرفية التي يخرجها هذا الكاتب. وما من ريب في أن هذه الحال دفعت الكتاب إلى أن يصلوا بنثرهم وتنميقه إلى مرتبة تكاد ترفع الحواجز بينه وبين الشعر، فهو نثر منظوم أو هو شعر منشور، وماذا يفصل بينه وبين الشعر؟ إنه يعتمد على الموسيقى: موسيقى السجع، كما يعتمد على زخرف البديع، ولأنهم ليبالغون في ذلك حتى تتحول رسائلهم إلى ما يشبه الوشى الخالص؛ فهي نحلي وتنميق، وبديع وترصيع.

وإن الإنسان ليخيّل إليه كأنما تحولت صناعة النثر في تلك العصور عن طبيعتها الأولى تحولاً تاماً، إذ أصبحت أشبه ما تكون بصناعة أدوات الترف والزينة فهي تحف تنمق في أروع صورة للتنميق، وكل كاتب يتوفر على إحداث هذه التحف توفراً يتيح له أن يشارك في آياتها وبدائعها، وإنه ليُعنّت نفسه في سبيل ذلك إعنائاً بعيداً. ونحن - في الواقع - لانكاد نتصور الآن ما كان يحدث في تلك العصور في أثناء صناعة هذه التحف والطرف لبعده العهد

بيننا وبينها ، ولأننا أصبحنا عمجلين في إحداث التماذج الفنية وما تحتوى عليه من زخارف دقيقة، بل لقد أصبحنا ننفر من التصنيع وما يُطَوَّى فيه من سجع وبديع . ومن يقرأ في آثار القرن الرابع يحس أن هذا المذهب من التصنيع لم يقف عند كتاب الدواوين ، بل لقد أخذ ينتشر بين غيرهم من كتاب الرسائل الشخصية ، وعلى رأسهم أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني ، فقد تركا مجموعتين كبيرتين من الرسائل ، ذهبا فيهما هذا المذهب من السجع والبديع أو من التصنيع والترصيع ، ولم يكن الخوارزمي وبديع الزمان هما اللذان يذهبان هذا المذهب فقط ، بل كان يذهبه جميع الكتاب من حولهما . يقول الخوارزمي في كتاب إلى أبي محمد العلوي : « قرأت الفصل المسجّع فشغلتني الاقتباس منه ، عن الجواب عنه . وهو يتقدم ذلك بوصف هذا الفصل فيقول : « ورد كتاب السيد . . فرجع الطرف منه بروضة مطورة ، وحلّة منثورة ، ولآلى فرائد منثورة »^(١) ، وهكذا كانت كتابة الأدباء في هذا العصر ، فقد كانوا دائماً ينمقون كتبهم ويزخرفونها حتى تصبح كأنها الرياض المنمقة والحلل المنثورة .

والحق أن موجة التصنيع في القرن الرابع كانت حادة حدة شديدة فلم يسلم منها أحد إلا في القليل الأقل حتى كتاب التاريخ أنفسهم رأينا بينهم من يختار لنفسه هذا الأسلوب الجديد من التصنيع ، وبدأ هذه الحركة الصابي في كتابه « التاجي في أخبار بني بويه » ثم تبعه المؤلفون في التاريخ أمثال العتبي في كتابه « البميني » نسبة إلى محمود بن سبكتكين الغزنوي إذ لقبه الخليفة « يمين الدولة وأمين الملة » . وهو كتاب في تاريخ سبكتكين وابنه محمود ، وقد نال شهرة كبيرة في عصره وبعد عصره، يقول السبكي : « كان أهل خوارزم وما والاها يعتمون بهذا الكتاب ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري »^(٢) . وما من شك في أن الصابي من جانب والعتبي من جانب آخر

(١) انظر رسائل أبي بكر الخوارزمي (طبع) (٢) طبقات الشافعية ١٣/٤ .

كانا سبباً في شيوع السجع والتصنيع في الكتابة التاريخية عند العماد الأصهباني ومن لفّ لفّه . وقد كان للثعالبي أيضاً أثره في هذا الجانب فقد قدم للأدباء من كتاب وشعراء في يتيمة بمقلّمات مسجوعة ، اعتمد فيها على زخرف البديع .

على أننا نلاحظ أن هؤلاء الكتّاب جميعاً من أصحاب مذهب التصنيع والسجع والبديع أخذت تظهر على أسلّات أقلامهم شيّات مذهب آخر هو مذهب التصنع ، إذ نراهم يعمدون إلى تعقيد أساليبهم الزخرفية أو إلى اتخاذ فنون جديدة في نثرهم لا تمت إلى التجميل والتصنيع بصلة ، إنّما تمت إلى التحذلق والتكلف ، ويظهر أنه كان لكتّاب الرسائل الشخصية الأثر الأول في هذا الجانب فإن موضوع رسائلهم عادة تهنته أو عتاب أو رثاء أو اعتذار أو استمناح ، وهي موضوعات محدودة بطبيعتها ، فإذا يصنع الكاتب المصنّع الذي يريد أن يثبت براعته وتفوقه ؟ هل يقتصر على سطور معلودة ؟ إن الاقتصار على سطور قليلة لا يُعطي فرصة لبيان مهارة الكاتب وإذن فلا بد له من أن يطيل ، ولكن كيف يطيل ومعانيه محدودة؟ لم يجد سبيلاً إلى ذلك إلا أن يمد معانيه بكل وسيلة ممكنة ، ولم ير مانعاً أثناء هذا الامتداد عن اللجوء إلى المبالغات والتحويلات والاعتداد بكثرة العبارات حتى ليخيل إلى الإنسان وهو يقرأ رسالة للخوارزمي أو للبديع أنه يقرأ في أساليب كتبت لتُحفظ للتعبير عن معنى ، فالمعاني فقدت قيمتها ولم يعد لها أهمية ، إنّما الأهمية كلها للألفاظ وما تطرّز به من وشئ وحلّى ، وحتى المقامات التي ابتكرها بديع الزمان تسميها هذه المياسم ، فهي لا تعبر عن قصص كما يفهم منها ، وإنّما تعبر عن عبارات مرصوفة يمكن للأديب أن يستخدمها في أعماله .

والحق أننا لا نمضى في قراءة الخوارزمي وبديع الزمان وهما أهم المصنّعين بين كتّاب الرسائل الشخصية لتلك العصور حتى نحس بأن تأليف الرسائل أصبح لا يقصد به إلى التعبير عن معان خاصة إنّما يقصد به إلى التعبير عن غايات تعليمية ، فهي رسائل يقرؤها المؤدّبون ليحفظوها ويحكوا على مثالها لأنفسهم

آثاراً تشبهها ، وقد أعدت هذه الحبال إلى ظهور فكرة الأساليب المحفوظة التي تورث وتكرر وتردّ دبين الكتاب . على أننا لا نترك الخوارزمي وبديع الزمان إلى قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان وجرجان حتى نجده يحقق ضرورياً من التعقيد ليزحف التصنيع لم تكن معروفة من قبله ، وهي ضرورية تجعله أقرب كتاب عصره إلى ذوق التصنيع والمتصنعين . ونحن نقف عند هؤلاء الثلاثة : الخوارزمي وبديع الزمان وقابوس . لنفسر نمو مذهب التصنيع من جهة وتحول الكتاب قليلاً قليلاً إلى مذهب التصنيع من جهة أخرى ، حتى تنكشف لنا هذه الدورة في تاريخ النثر العربي وما يتصل بها من فن وصناعة انكشافاً تاماً .

٢

أبو بكر الخوارزمي وتصنعه

كان أبو بكر كاتباً كبيراً كما كان شاعراً كبيراً أيضاً ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المعروف^(١) ، وأصله من طبرستان ، ومولده ومنتشؤه خوارزم^(٢) ، وإليها ينسب ، وقد « فارقها في ريعان عمره وحدانية سنه ، وهو قوى المعرفة ، قويم الأدب ، نافذ القرينة ، حسن الشعر ، ولم يزل يتقلب في البلاد ، ويدخل العراق والشام ، يأخذ عن العلماء ، ويقتبس من الشعراء ، ويستفيد من الفضلاء ، حتى تخرج وخرج فرّده الدهر في الأدب والشعر ، ولقي سيف الدولة وخدمه ، واستفاد من يمين حضرته ، ومضى على غلوائه في الاضطراب والاغتراب ، وشرق بعد أن غرب ، وورد بخارى . . . ووافي نيسابور . . . ثم قصد سجستان . . . ثم إنه عاود نيسابور ، وأقام بها إلى أن وفق التوفيق كله بقصد حضرة الصاحب بن عباد بأصبهان ولقائه بمده ، فأنجحت سفرته ، وربحت تجارته ، وسعد جدّه بخدمته ، ومدخلته ، والحصول في جملة

(٢) اليتيمة للعلامة (طبع الصاوي) ٤/١٩٢ .

(١) وفيات الأعيان ١/٥٢٣ .

ندمائه المختصين به ، فلم يخل من طُلِّ إحسانه ووابله، وغامر إنعامه ونائله، وتزوّد من كتابه إلى حضرة عضد الدولة بشيراز ما كان سبباً لارتياشه ويساره ، فإنه وجد فيها قبولاً حسناً ، واستفاد منها مالا كثيراً . ولما انقلب عنها بالغنيمة الباردة إلى نيسابور استوطنها واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ، ودَرَّتْ عليه أخلاف الدنيا من جميع الجهات، وحين عاود شيراز ورد منها عتلاً بعد تهل، فأجرى له عند انصرافه رَسْمٌ يصل إليه في كل سنة بنيسابور مع المال الذي كان يحمل من فارس إلى خراسان ، ولم يزل بحسن حال . . . يقيم للأدب سوقاً ، ويعيده غضاً وريقاً ، ويدرس ويملي ، ويشعر ويروي ، ويقسم أيامه بين مجالس الدرس ومجالس الأُنس . وكان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً ويغض من سلطان خراسان ، ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه ^(١) . وتعصّب الخوارزمي للبوهميين طبعي لما ذكره الثعالبي من تكريمهم له وبذلهم ، على أن ذلك كان سبباً في أخذه وجبسه واستخراج بعض المال منه إلا أنه احتال يوماً وهرب إلى حضرة الصاحب متكرراً ، واستمر عنده حتى تولى الوزارة في خراسان صديقه أبو الحسن المزني « فاستدعاه وأكرم مورده ومصدره ، وكتب إلى نيسابور في رد ما أخذ منه عليه ، ففعل ، وزادت حالته ، وثبتت قدمه ، ونظر إليه ولادة الأمر بنيسابور بعين الحشمة والاحتشام، والإكرام والإعظام ، فارتفع مقداره ، وطاب عيشه ^(٢) . ويظهر أنه كانت بنيسابور جماعة مستوحشة منه جداً ، فاستغلوا الفرصة حين وفد بديع الزمان على بلدتهم في أخريات أيام الخوارزمي ، وعقدوا مناظرات بينهما ، وأعانوا البديع عليه ^(٣) . ولم يجل الحول حتى توفّي، وكانت وفاته سنة ٥٣٨٣ هـ ، ومولده سنة ٥٣٢٣ هـ ^(٤) .

وببالغ بديع الزمان في وصف هزيمته للخوارزمي حين دعى لمناظرته . على أنه ينبغي أن نتلقى هذه المبالغة بشيء من الاحتياط ، لأن البديع هو الذي رواها

(٤) البيهقي ١٩٦/٤ وانظر وفيات الأعيان

. ٥٢٣/١

(١) البيهقي ١٩٥/٤

(٢) البيهقي ١٩٦/٤

(٣) البيهقي ١٩٦/٤

في رسائله من جهة^(١) ، ولأن الخوارزمي كان له خصوم في نيسابور وقفوا ضده فيها من جهة أخرى . ولعل صاحب اليتيمة كان دقيقاً في حكمه حين قال في ترجمة بديع الزمان : « ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سبباً لهبوب ريح الهمداني وعلو أمره ، وقرب نُجُوحه ، وبعد صبيته ، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحداً من الأدباء والكتاب والشعراء ينبري لمباراته ، ويجترئ على مجاراته ، فلما تصدى الهمداني لمساجلته ، وتعرض للتحكمك به ، وجرت بينهما مكاتبات ومقامات ، ومناظرات ومناضلات ، وأفضى السنان إلى العنان ، وقَرَعَ النَّبِيعَ بالنَّبِيعِ^(٢) ، وغَلَّبَ هذا قوم ، وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاكين ، والقرنين المتصاولين ، طار ذكر الهمداني في الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الإقبال على أموره ، وأدرَّ له أخلاف الرزق . وأجاب الخوارزمي داعي ربه ، فخلا الجحوى للهمداني ، وتصرفت به أحوال جميلة^(٣) » فصاحب اليتيمة يرى أن نجاح البديع في هذه المناظرات لم يجئ من أنه انتصر على الخوارزمي وإنما جاء من أنه استطاع أن يثبت له ، وسرعان ما أتى الحادث المفاجئ فتروى الخوارزمي وخلا الجحوى للبديع .

ومهما يكن فقد كان الخوارزمي من كبار الأدباء في عصره . روى ابن خلكان أنه استأذن على الصاحب في أرجان وهو لا يعرفه ، فقال الحاجب : قل لهذا المستأذن قد ألزمت نفسي أن لا يدخل عليّ أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر الخوارزمي : ارجع إليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب ، فأعلم الصاحب بما قال ، فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمي^(٤) . والحق أن أبا بكر كان أستاذاً كبيراً في

(١) انظر هذه المناظرات في رسائل بديع الزمان

(٢) اليتيمة ٢٤١/٤ . (٣) (٤) وفيات الأعيان ٥٢٣/١ .

(٢) التبغ : شجر للقسي والسهم .

عصره ، ولعله من أجل ذلك أسند إليه منصب تخريج التلاميذ في نيسابور^(١) ، ويظهر أنه كان متشيعاً غالباً في تشيعه ، ففي رسائله رسالة شيعية صَبَّ فيها جام غضبه على الخلفاء من الأمويين والعباسيين^(٢) . وإن من يرجع إلى رسائله يجدها تستحوذ على خصائص مذهب التصنيع لعصره في صورة بالغة من السجع والبديع ، وانظر إليه يكتب إلى أبي علي البلعمي لما طال عتبه وكثرت رقاعه^(٣) :

« الكريم - أيد الله تعالى الشيخ - إذا قدر ، غفر ، وإذا أوثق أطلق ، وإذا أسر أعتق ، ولقد هربت من الشيخ إليه ، وتسلمت بعفوه عليه ، وألقيت ربة حياتي وماتى ببديه ، فليذقني حلاوة رضاه عني ، كما أذاقني مرارة انتقامه مني ، ولتُخ على حالي غُرة عفوه ، كما لاحت عليها مواسم غضبه وسَطَّوه ، وليعلم أن الحر كريمة الظفر إذا نال أقال ، وأن العبد لثيم الظفر إذا نال استغلال ، وليغتمم التجاوز عن عثرات الأحرار ، ولينتهز فرص الأقدار ، وليحمد الله تعالى الذي أقامه مقام من يُرْجى ، ويخشى ، وركب نصابه في رتبة شاب الزمان ومجدها فتى ، وأخلق العالم وذكرها طرى ، فجعله في الميلاد كريمها وسليها ، وفي الرتبة قدوتها وجليلها ، وليعتقد أنه قد هابه من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر ، وأن من رد عليه عذره فقد خرج إلى الشجاعة بعد الجبن ، وأخرج ذنبه إلى صحو اليقين من ستره الظن ، وفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أوليائه ، وعصمه بما يزيد به في جماجم أعدائه ، وليس بين الموالات والمعاداة ، إلا لقية بشعة ، أو لفظة قذعة » .

وأنت ترى في هذه الرسالة أن الخوارزمي يعتمد على السجع اعتماداً يشبه ما رأيناه سابقاً عند ابن العميد والصاحب ، فهو ينتخب لفظه كما ينتخب أسجاعه ، وهو يعني بالسجع القصير حتى لا يطول الزمن على الأذن ، فتخرج من الجحوى

. ١٢٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٨٠ .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ١٣٠ .

(٣) رسائل الخوارزمي ص ٩٦ .

(١) في رسائل الخوارزمي ما يدل على كثرة

تلاميذه ، فهو يرأسهم ويوصى بهم الأمراء والرؤساء . انظر الرسائل (طبع الجوائب) ص ١٠ ،

١٢ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٧٥ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٩ ،

الموسيقى الذى يريده الكاتب ، وقد أتى بالسجع الطويل ولكنه يحدث فيه من المعادلات الداخلية ما يعود به قصيراً ، كقوله : « وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال ، وأن العبد لثيم الظفر إذا نال استطال » ، فإن هاتين السجعتين طويلتان في الظاهر ؛ ولكنك إذا تأملتهما وجدتهما تنحلان إلى أربع سجعات ، ففيهما سجعتان داخليتان ، وكان يلجأ إلى ذلك كثيراً في رسائله . وهو لا يلجأ إلى السجع وحده كما نرى في تلك الرسالة ، بل نراه يلجأ إلى ألوان البديع وخاصة لون التصوير ولون الطباق حتى يرصع سجعه ترصيعاً ، وكان يعنى أيضاً بلون الجناس ، ولكنها عناية أقل من عنايته بالطباق ، ومن أمثلة جناسه قوله في مطلع إحدى رسائله : « وَعَدَّ الشَّيْخُ يُكْتَبُ عَلَى الْجَلْمَدِ ، إِذَا كُتِبَ وَعَدَّ غَيْرِهِ عَلَى الْجَلْمَدِ ، وَلَكِنْ صَاحِبُ الْحَاجَةِ سَيُّءُ النَّظَرِ بِالْأَيَّامِ ، مَرِيضُ الثَّقَةِ بِالْأَنَامِ » ^(١) ، وقوله في أخرى : « ورد على خبر وفاة فلان ، فدارت بي الأرض حيرة ، وأظلمت في عيني الدنيا حسرة ، وملك الوله والوهل قلبي وساوسَ وفكرة ، وتذكرت ما كان يجمعني وأباه من سكرى الشباب والشراب » ^(٢) . وعلى هذا النحو كان الخوارزمي يعتمد في تصنيعه على ما عرف عند ابن العميد وتلامذته من سجع وبديع ، وإنه ليحاول أن يبلغ من ذلك أوسع درجة ممكنة من الحلية ، فهو يقصر سجعه ، وهو يخلع عليه ضرورياً من الرشاقة بفضل ما يلجأ إليه من الصور والجناس والطباق ، وكل ذلك ليجلب أبداع ما يمكن من طُرف وتحف في هذا الباب ، وإن الإنسان ليحس عنده حقاً بأن التصنيع قد وصل إلى غايته من التجميل ، فكل عبارة كأنها زخرف مستقل بما تحمل من وشى البديع وزينته ، وإنه ليتطرف في ذلك تطرفاً ينتهى به إلى ظهور بعض سمات التصنيع في كتابته .

(١) رسائل الخوارزمي ص ١٢ . والجلمد : (٢) نفس المصدر ص ١٥ .

الصخر ، والجلمد : الثلج .

التصنيع وتصنيع الخوارزمي

كانت صناعة الخوارزمي في رسائله تقوم على التصنيع وما يطوى فيه من سجع وبديع ، على أن من يتأمل في هذه الصناعة يحس تسرب ضروب من التصنيع إليها ، إذ كان الخوارزمي يعتمد إلى ضروب من التحويلات والمبالغات ، وكأنما قصر الموضوعات التي كان يعالجها هو الذي أداه إلى هذه الصورة من التعبير ، وانظر إليه يكتب إلى أحد تلاميذه فيصف أيامه الماضية معه على هذا النحو^(١) :

« كانت أرق من حاشية البرد ، ومن طلوع السعد ، وأحلى من إنجاز الوعد ، وأعذب من القند^(٢) ، بل من النقد ، وأعبق من الورد ، وما أردت إلا ورد الخلد ، بل من المسك والنَّد ، وأطيب من القرب بعد البعد ، ومن الوصل في إثر الصد ، بل كانت أرق من نسيم الزهر ، في السحر ، ومن قضاء الوطر ، على الخطر ، بل كانت أقصر من ليل السكاري ، أو نهار الحيارى . »

وأنت ترى أساس هذه التعبيرات كلها أنه بهول وبيالغ في وصف الأيام الماضية وما كان من حسنها وجمالها ، ولكن انظر كيف أطال في نعتها لها ، وهي إطالة مقصودة إذ كان يقصد بها إلى بيان مهارته في صوغ هذه الأسجاع التي تتقابل تقابلاً بديعاً على هذا النحو ، فإذا هي تتألف من أسجاع دالية أول الأمر حتى إذا أثبت تفوقه في استخدام الدال وأسجاعها انتقل إلى الرأء يحولك منها ما يريد من سجع ، وهو يوشى هذا السجع كله بالجناس والطباق والتصوير . ونحن نتساءل : ما هذه الأوصاف كلها التي « يرصّها الكاتب رصّاً » ؟ ولحق أن هذا « الرص » وما يتبعه من تراكم العبارات أصبح أصلاً من أصول صناعة

(٢) القند : عمل قصب السكر .

(١) رسائل الخوارزمي ص ١١ .

الحوارزى فى رسائله ، وإنا لنلمح فىه جانباً من جوانب التصنع ، وهل التصنع إلا الخروج عن الطرق الطبيعية فى التعبير الفنى ، إما بمثل هذا التراكم للعبارات ، أو بما قد يحدث من تعقيد فى زخرف السجع والبديع ، أو بما قد ينجم من اجتلاب ألفاظ العلوم ومصطلحاتها ، ومهما يكن فنحن نقع عند الحوارزى على هذه الحال الجديدة التى أخذت تظهر فى مذهب التصنيع ، ونقصد هذه العبارات المرصوفة التى يتراكم بعضها على بعض ، والتى يحس الإنسان أنها لا تؤدى شيئاً سوى أسجاع وضروب من بديع ، واستمع إليه يصف قصيدة بعث له بها أحد تلاميذه (١) :

« وصلت القصيدة الغراء ، الزهراء ، فكانت أرقّ من الماء ، بل من الهواء ، وألذ من الصهباء ، وأسرّ من اللقاء بين الأحباء ، ومن هجوم السّراء ، غيب الضراء ، وأعذب من مغازلة النساء ، ومن مجالسة الندماء ، ومن مساعدة القضاء ، ومن معاقرة الشراب على الغناء ، ومن استماع فوائد الحكماء ، وخطب البلغاء ، وقلائد الشعراء ، ومن أخذ جوائز الأمراء ، وتحصيل مراتب الخلفاء ، فكانت معانيها أبديع من الوفاء ، وأعز من السخاء ، وأغرب من النصفة فى الأصدقاء ، ومن الأمانة فى الشركاء ، بل أغرب من المغرب العنقاء ، وألغظها أحسن من البدر فى الظلماء ، وأطيب من وصال الحسناء ، ومن الشّماتة بالأعداء » .

أرأيت إلى هذه المبالغات والتهويلات و « رصّ » العبارات ؟ إنه الأسلوب الجديد ، أسلوب الرسائل الشخصية عند الأستاذ الأديب أبى بكر الحوارزى الذى اشتهر بالبلاغة والبيان فى عصره ، لما كان يسوق فى رسائله من مثل هذه العبارات المرصوفة التى تدل على التطرف والمبالغة ، كما تدل على ضرب من الإفراط فى استخدام الجمل والتراكيب المسجوعة . وأكبر الظن أنه كان يعتمد إلى ذلك عمداً حتى يجمع لتلاميذه فى رسائله جميع صور التعبير التى يمكن أن يستخدموها فى فكرة من الأفكار ، وكأنه كان يحس أن مهمته ليست هى

أن يعبر عن معان ، بل هي أن يعبر عن أساليب يحفظها الطلاب . وما من شك في أن هذا كان أحد الأسباب في شروع العبارات المحفوظة في اللغة العربية ، إذ نجدها تميل منذ الخوارزمي إلى الاحتفاظ بصيغ خاصة من التعبيرات ، يرددها الأدباء في كتاباتهم .

وليس هذا كل ما يلاحظ على تصنيع الخوارزمي وتطرفه فيه ، بل إننا نلاحظ عليه أشياء أخرى لعل في مقدمتها أنه يكثر من الإشارات التاريخية^(١) ، كما يكثر من ذكر الشعر ، وهي حال أوسع من أن ندل عليها ، وأيضاً فإنه كان يكثر من نثر الشعر وإدماجه في كتابته ، بل إنه ليعترف بأنه يكثر من إغارته على الكتّاب الذين سبقوه إذ يقول صراحة : « ما زلت أسرق من هذا كلمة ، وأنظر من ذاك فقره ، وأستعير من هناك نادرة وثيقة ، أغضب الأحياء على بيانهم ، وأنبش الموتى من أكفانهم »^(٢) . وزراه في مقدمة إحدى رسائله يقول : « كتابي وأنا في سلامة إلا من الحرّ الذي يذيب دماغ الضبّ ، ويشبه قلب الصبّ ، وهذا سرقة من رسائل الوزير الجليل ابن عباد ، وليس بأول غارة الكردي على الحاجي ، ولا بأول أخذ الطرّار ، مال التجار »^(٣) . ولعل هذه السرقة وأمثالها هي التي جعلته يصف أسلوبه بأنه « سجع ملزق وكلام ملفق »^(٤) . والحق أننا نجد عند الخوارزمي ميلاً واضحاً إلى الخدلة في التعبير ؛ وإنها لخدلة تؤديه أحياناً إلى أن يتصنع لبعض ألفاظ من النجو ، إذ يقول لصديق له : « وكيف صرتُ المستنى ، وقعدتُ على طريق إلا »^(٥) . وقد نحس هذه الخدلة نفسها في وسائل التصنيع كقوله في إحدى رسائله : « لقد أراحني الشيخ بيّره ، لا بل أتعبني بشكره ، وفزعني بصادق قيامه لا بل شغلني بتعديد إحسانه وإنعامه ، وخفف ظهري من ثقل الحن ، لا بل أثقله بأعباء المنن ، وأحياني بتحقيق الرجاء ، لا بل أماتني بفراط الحياء »^(٦) . وعلى

(١) رسائل الخوارزمي ص ٣٥ ، ٩٧ . (٤) نفس المصدر ص ٣٤ .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ٣٦ . (٥) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٧٩ . (٦) نفس المصدر ص ١٠٦ .

هذا النحو نحس دائماً بضروب من التصنع تتسرب إلى صناعة الخوارزمي ، وهي صناعة كانت تقوم على التصنيع ، ولكنها أخذت تظهر فيها بعض شيات التصنع وسماته ، مما يدل على أننا وصلنا من التصنيع إلى هذه المنطقة التي يختلط فيها المذهب بمقدمات مذهب آخر ، وهي مقدمات ما تزال تتسع حتى ينفذ منها الأدباء إلى إحداث المذهب الجديد . ونحن لا نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نجد الرغبات تتكامل للخروج من مذهب التصنيع القديم إلى مذهب جديد من التصنع ، وهو مذهب كان يقوم على التعقيد في الأسلوب والأداء . وما من ريب في أن الخوارزمي يعبر عن شيء من هذه الرغبات مع أن فنه عامة يندمج في مذهب التصنيع .

٤

بديع الزمان وتصنيعه

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين ويعرف باسم بديع الزمان ، أصله من همدان وإليها ينسب ، وقد تركها عام ٣٨٠ هـ وعمره نحو اثنتين وعشرين سنة ، ويظهر أنه لم يكن معجباً بها ، فقد جاء في إحدى رسائله لأستاذه أحمد بن فارس اللغوي المعروف الذي «أخذ عنه جميع ما عنده واستفد علمه»^(١) قوله^(٢) :

لا تلمني على ركافة عقلي إن تيقنت أنني همداني

وقد روى له ابن خلكان - مع شيء من الشك - بيتين يندم فيهما همدان

وأهلها ذمماً قبيحاً على هذا النحو^(٣) :

همدانُ لي بلدٌ أقولُ بفضلِهِ
لكنه من أقبح البلدانِ
صبيانُهُ في القبحِ مثلُ شيوخِهِ
وشيوخُهُ في العقلِ كالصبيانِ

(١) اليتيمة ٤/٢٤١ .

(٢) رسائل الأعيان ١/٣٩ .

(٣) رسائل بديع الزمان (طبع بيروت

وقد يكون في هذا الشعر — إذا صححت نسبته إليه — ما يعلل لمفارقتة بلده في مستقبل حياته ، وقد تركها إلى حضرة الصاحب بن عباد زعيم أدباء عصره حينئذ فتزود من ثماره وحسن آثاره ^(١) . ونراه يترك الصاحب إلى جرجان إذ « أقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش في أكنافهم والاقتراب من أنوارهم . ثم قصد نيسابور فوافاها في سنة ٣٨٢ هـ ونشر بها بزة ، وأظهر طرزه وأملى أربعمائة مقامة ! نحلها أبا الفتح الإسكندري في الكدبية وغيرها » ^(٢) . على أنه لا يستمر طويلاً في نيسابور إذ نراه يرحل عنها متجولاً في خراسان وسجستان وغزنة وما حواليلها . ويقول الثعالبي : إنه « لم يبق من بلدة في هذه الأنحاء إلا دخلها وجنى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرتها ، ولا ملك ولا أمير لا وزير ولا رئيس إلا استمطر بنبوءته ، وسرى في ضوئه ، ففاز يرغائب النعم ، وحصل على غرائب القسم ، وألقى عصاه بهراة واتخذها دار قراره ، ومجمع أسبابه ، واقنتى ضياعاً فاخرة ، وعاش عيشة راضية ، وحين بلغ أشده وأرنب على الأربعين ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه سنة ٣٩٨ هـ » ^(٣) .

واشهر بديع الزمان بحافظة قوية قوة شديدة ، يقول صاحب اليتيمة : « إنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب ، فمنها أنه كان يُنشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ، ولا يخل بمعنى ، وينظر في الأربعة والحمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهدها عن ظهر قلبه هذا ، ويسردها سرداً » ^(٤) . وكما اشتهر بديع الزمان بحافظته اشتهر بسرعة ارتجاله ^(٥) وكان يعرف الفارسية ويترجم بعض أشعارها إلى العربية ، ويقال إن الصاحب بن عباد اختبر مهارته في هذا الجانب ^(٦) ويقول صاحب اليتيمة :

(٥) اليتيمة ٢٤٠/٤ .

Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. 11, (٦)

p. 112.

(١) اليتيمة ٢٤١/٤ .

(٢) اليتيمة ٢٤١/٤ .

(٣) اليتيمة ٢٤٢/٤ .

(٤) اليتيمة ٢٤٠/٤ .

إنه « كان يترجم ما يُنتَترَحُ عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعنى "عربية بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع" (١) .

وليس هناك كاتب في القرن الرابع من التمجيد وثناء ما نلّه بديع الزمان . وحتى اسمه لا يعرفه الناس وإنما يعرفونه بلقبه الذي أطلقه عليه معاصروه ، وإنه ليفصح عن مدى إعجابهم به ، يقول تعالى : « هو معجزة همدان ، ونادرة انفالك ، وبكر عطارد ، ونرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يُلُقْ نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر ، وشرف نضج ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يُدرِك قرينه في طُرف النر ومُسلّحه وغرره . . ولم يرَ ولم يُروَ أن أحداً بلغ مبلغه من لبّ الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره » (٢) ويقول الحصري وقد فُكر اسمه (البديع) : « هذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، كلامه غصّ البكاسر ، أنيق الجواهر . يكاد الهواء يسرقه لطفاً ، والهوى يعشقه ظرفاً » (٣) وكان الحصري يتعصب له على الخوارزمي ، وبلغ من تعصبه أنه لم يرو للخوارزمي شيئاً في كتابه بينما أكثر من روايته عن البديع ، إذ كان يعجب به وبمقدرته على التجويد والتجوير إعجاباً شديداً . وقد ترك بديع الزمان مجموعة كبيرة من الرسائل نُسِّفت على مائتين وثلاثين ، وأكثرها في علاقاته الشخصية وبعضها في مسائل أدبية وقد تحدث في الرسالة رقم ١٦٧ عن انتشار التشيع ومن يتصفح هذه الرسائل يحسُّ فيها أثر الاحتفال والجهد الشديد ، واستمع إليه في هذه الرسالة القصيرة (٤) :

« يعز عليّ - أطل الله بقاء الرئيس - أن ينوب في خدمته قلبي ، عن قلمي ، ويسعد برؤيته رسولي ، دون وصولي ، ويرد مشرعة الأنس به كتابي ، قبل ركابي ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمّة :

وعليّ أن اسعى وليّ س عليّ إدراك النجاح

(٣) زهر الآداب للحصري ١/٣٠٧ .

(٤) رسائل بديع الزمان ص ١٠٣ .

(١) البيهقي ٤/٢٤١ .

(٢) البيهقي ٤/٢٤٠ .

وقد حضرت داره ، وقبّلت جداره ، وما بي حُبُّ الجدران ، ولكن شغفًا
بالقُطّان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً إلى السكّان .

وأكبر الظن أنه استقرت في نفسك الآن صورة من تصنيع البديع فهو
يعتمد في تصنيعه على السجع القصير ، وإنه ليبعد في ذلك ، فإذا سجعته لا
تتألف من عبارات ، وإنما تتألف من ألفاظ وكلمات ، ف « قلمي » تتبعها
« عن قدي » و « رسولي » يليها « دون وصولي » و « كتابي » تجيء في إثرها
« قبل ركابي » . وما من شك في أنه بلغ من ذلك مبلغاً لم يصل إليه ابن العميد
ولا من تبعوه في مذهب التصنيع ، وهو يضيف إلى ذلك كل ما يمكنه من
ترصيع بالبديع ، وكان يعتمد - في أغلب الأمر - على الجناس ، بينما
كان يعتمد الخوارزمي في الأكثر على الطباق ، وهما يشتركان بعد ذلك في العناية
بالتصوير . على أن البديع كان يهتم بلون لم يأبه له الخوارزمي وهو « مراعاة
النظير » بين ألفاظه وكلماته ، وكان يبالغ في ذلك حتى يضم اللفق إلى لفته ،
والشكل إلى شكله ، كقوله في تهنته بمولود : « حبذا الأصل وفرعه ، وبورك
الغيث وصوبه ، وأينع الروض وتورّه ، وحبذا سماء أطلعت فَرَقْدًا وغابة أبرزت
أسداً » (١) فإنه حين ذكر الأصل وفرعه استطرّد إلى ذكر الغيث وصوبه والروض
ونوره أوزهره ، والسماء وفرقدها والغابة وأسدها . ومن ذلك قوله في إحدى رسائله :
« وردتُ من ذلك السلطان حضرته التي هي كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ،
ومشعر الكرام ، لا مشعر الحرام ، ومِنْتى الضيف ، لا مِنْتى الخيف وقبلة
الصَّلّات ، لا قبلة الصَّلّاة » (٢) فإنه حين ذكر الكعبة والحجاج ذكر المشعر
الحرام ومِنْتى الخيف وقبلة الصلاة ، وكل ذلك ليجانس وينظر بين ألفاظه
وكلماته . على أن هناك ظاهرة تختص بها رسائل بديع الزمان ، ولا توجد في
رسائل الخوارزمي ، وهي ظاهرة القصص ، وهي أوسع من أن نمثل لها بأمثلة ،
لأنها تنتشر في جميع رسائله . ومهما يكن فقد كان بديع الزمان معجباً بمذهب
التصنيع ، وكان يسعى دائماً إلى تطبيقه في رسائله وكتاباته وإنه ليغالى في هذا

(٢) رسائل بديع الزمان ص ١٥١ .

(١) رسائل بديع الزمان ص ٥١٥ .

التطبيق فإذا هو يحاول أن يقصّر عبارات سجعته تقصيراً شديداً كما يحاول أن يفرط في استخدام ألوان البديع إفراطاً بعيداً .

٥

التصنع وتصنيع بديع الزمان

رأينا بديع الزمان يعنى في رسائله بتطبيق أساليب التصنيع عناية واسعة ، وقد أفرط في ذلك إفراطاً أتاح لضروب من التصنع أن تتسرب إلى كتاباته ، ولعل في مقدمة هذه الضروب ما نحسه عنده من مبالغات وتهويلات تشبه تهويلات الخوارزمي ومبالغاته ، بل لعل الخوارزمي لم يفرط إفراطه . على أن هذا ليس هو الجانب الأهم في تصنيع البديع ، بل هناك جوانب كثيرة نحسها لأول مرة عنده ، وإنها لتجعله قريباً من ذوق أصحاب التصنع إذ كان يحاول دائماً أن يأتي بجديد في فنه ، وأدته هذه المحاولة إلى فنون من التصنع لا عهد لأصحاب التصنيع بها ، واستمع إلى هذه الرسالة التي كتبها يصف نهب اللصوص له في أثناء رحيله من جرّجان إلى نيسابور^(١) :

« كتابي وأنا أحمد الله إلى الشيخ وأذم الدهر فما ترك لي فِضَّةً إلا فِضَّها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا عِلْقاً إلا عَلِقَه ، ولا عَمَّاراً إلا عَمَّرَه ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا مالاً إلا مال إليه ، ولا حالاً إلا حال عليه ، ولا فرساً إلا افترسه ، ولا سبداً إلا استبد به ولا لبداً إلا لبد^(٢) فيه ولا بزة إلا بزها ، ولا عارية إلا ارتجعها ، ولا وديعة إلا انتزعها ، ولا خلعة إلا خلعها ، وأنا داخل نيسابور ، ولا حلية إلا ابللده ، ولا برودة إلا القشرة » .

ألا تشعر بأن البديع في هذه الرسالة قد تجاوز الطرق الطبيعية في الزخرفة

(١) ولا لبد ، أى لا قليل ولا كثير .

(٢) الرسائل ص ١٠٤ .

(٣) السبد واللبد من قولهم : ما له سبد

بزينة الجناس ، إذ أعنتَ نفسه هذا العنت في طلبه ، فكل عبارة تخرج محملة به . وهذا هو معنى ما نقوله من أن الإفراط في استخدام ألوان التصنيع يقود الكاتب إلى فنون من التصنيع والتكلف الشديد . ولم يكن الخوارزمي ولا غير الخوارزمي من أصحاب مذهب التصنيع يضيِّقون على أنفسهم كل هذا الضيق ، فإذا هم لا يصنعون عبارة إلا ويوشَّونها بزخرف من زخارف البديع ، ولكن ما لبديع الزمان وللخوارزمي وأصحابه ؟ إنه يريد أن يتفوق عليهم ، وهو لذلك يعتمد إلى إعنات نفسه في صناعته حتى يقع عمله من أهل عصره موقعاً غريباً ، وكأنما الإغراب أصبح هو البديع الجديد ، ولذلك نراه يلجأ إلى مثل هذه الجناسات التي نراها في القطعة السابقة ، وانظرُ إليه يقول في إحدى رسائله مفضلاً العرب على العجم^(١) :

« العرب أَوْفَى وأوفر ، وأوقى وأوقر ، وأنكى وأنكر ، وأعلى وأعلم ، وأحلى وأحلم ، وأقوى وأقوم ، وأبلى وأبلغ ، وأشجى وأشجع ، وأسمى وأسمح ، وأعطى وأعطف ؛ وألطي وألطف ، وأحصى وأحصف ، وأنتى وأنتق ، ولا يُنكر ذلك إلا وقع وتبح ، ولا يجحده إلا تَغِلُّ نغِر»^(٢) .

أرأيت إلى هذه الكثرة من الجناس الناقص ؟ إنها دليل آخر على ما نذهب إليه من أن زخرف الجناس عند البديع أخذ يفقد بعض قيمته القديمة لأن الكاتب يجعلنا نشرف على ضرب من التصنيع في استخدامه ، ونمع أنه زخرف حقاً ولكننا نحس أن طاقته القديمة فقدت بعض مميزاتها وما كان يسمها من حسن وجمال . والحق أن التطرف في استخدام أدوات التصنيع على هذ النحو ينتهي بصاحبه إلى الخروج إلى مذهب التصنيع ، والبديع لم يكن من أصحاب هذا المذهب ، ولكنه كان مغالياً في تصنيعه مغالاة جعلته يدنو من ذوق أصحاب التصنيع الذين يصعبون في تعبيرهم كما سنرى فيما بعد ، وقد كانوا

تافه ، نفل : فاسد ، نغر : غاضب .

(١) الرسائل ص ٢٧٩ .

(٢) أُلطي : أثقل على العدو . وقع :

يلتمسون هذا التصعيب - من بعض الوجوه - في تعقيد زخرف التصنيع على نحو ما نرى الآن عند البديع . على أنه ينبغي أن نعرف أن البديع لم يكن يكثر من ذلك لأنه لم يكن يتخذ مذهباً ، ولكننا على كل حال نجد عنده ، وكأنه تعبير عن هذا التحول الذي أخذ يظهر قليلاً قليلاً في ميادين التصنيع ، وهو تحول كان يراد به الانتقال إلى المذهب الجديد، مذهب التصنع .

وليس كل ما نجده عند البديع من الشعور بهذا التحول هو استخدامه للجناس على هذا النحو ، فنحن نجد عنده مظاهر أخرى ، لعل من أهمها جنوحه للغريب في نثره ، كأن الغريب غاية يسعى إليها الكاتب ليحقق ضرباً من الجمال في صناعته ، وأكبر الظن أنه كان للجناس واهتمامه به أثر في استخدامه لهذا الغريب . وبجانب هذه الظاهرة التي تدل على التصنع والتكلف لأن استخدام الغريب لا يُعَدُّ جمالاً في ذاته ، نجد عنده ظاهرة أخرى ، وهي كثرة الأمثال في نثره ، وأيضاً فقد كان يكثر من اقتباس القرآن الكريم في كتابته . ولا يقف البديع عند ذلك بل نراه يكثر من تضمين الشعر ، وانظر إلى هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الخوارزمي أول قدمه إلى نيسابور^(١) :

« أنا لقرب الأستاذ - أطال الله بقاءه - (كما طرب النَّشْوَان مالت به الخَمْرُ) ومن الارتياح للقاءه (كما انتفض العصفور بلسه القطر) ومن الامتزاج بولائه (كما التقت الصهباء والبارد العذب) ومن الابتهاج بمراه (كما اهتز تحت البارح^(٢)) الخُصن الرطْبُ) فكيف نشاط الأستاذ لصديق طَوَى إليه ما بين قصبي العراق وخراسان ، بل ما بين عتبي نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزازه لضيف في بردة جمّال ، وجملة جمّال .

رَثَ الشَّامِلُ مُنْهَجَ الْأَثْوَابِ بَكَرَتْ عَلَيْهِ مُغْيِرَةُ الْأَغْرَابِ^(٣)

وهو - أيده الله - وليّ إنعامه ، بإنفاذ غلامه إلى مستقرى ، لأفضى إليه بسرّى ، إن شاء الله تعالى . »

(٣) منج : بال .

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٢٨ .

(٢) البارح : الريح الحارة في الصيف .

وواضح أن البديع استعان أربع مرات في أوائل رسالته بهذه الشطور من الشعر التي وضعناها بين أقواس، وما من ريب في أنه جاء بها ليبدل الخوارزمي على مهارته، وهذا هو نفسه ما يجعلنا نشعر بأن البديع كان يستظهر شارات من التصنع في عمله، وهي شارات تضطره إلى الجناس المسرف أو الجناس المعقد، كما تضطره إلى استخدام الغريب، وأيضاً فإنها تضطره إلى هذا التضمين لشطور الشعر في كلامه.

والواقع أننا نحس في هذه الظواهر كلها أثراً من التصنع الذي أخذ القرن الرابع يعدّ لظهوره، وبهـيّ لخروجه بما كان يصنعه البديع والخوارزمي في آثارهما. وقد كان البديع أقرب من الخوارزمي إلى ذوق التصنع، ولعل ذلك ما جعله يميل إلى اللعب والعبث في صناعته، فقد روى الثعالبي في يتيمنته أنه «كان يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جراً إلى الأول»^(١)، وقد روى بديع الزمان نفسه في رسائله صوراً كثيرة من هذا اللعب إذ نراه يُدِلّ على الخوارزمي بأنه يستطيع أن يقترح عليه أربعمائه صنف في الترس، ثم يستطرد فيصف بعض هذه الأصناف فيقول: إنه يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ منه جوابه، أو كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله، أو كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً، فإن عكست سطره مخالفة كان جواباً، أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها، أو كتاباً خالياً من الألف واللام، أو كتاباً خالياً من الحروف العواطل، أو كتاباً أول سطره كلها ميم وآخرها جيم، أو كتاباً إذا قرئ معرّجاً وسُرد معرّجاً كان شعراً، أو كتاباً إذا فُسر على وجهه كان ملحاً وإذا فسر على وجهه كان قدحاً^(٢).

ولعل من الطريف أن الخوارزمي حين سمع من بديع الزمان هذه الأصناف

(١) اليتيمة ٢٤٠/٤ ونجد في معجم الأدباء
أديباً معاصراً للبديع يسمى الصخرى يحاول أن
يقوله في هذا الجانب. انظر معجم الأدباء (طبع
مصر) ٢١/٥.
(٢) رسائل بديع الزمان ص ٧٤.

الجديدة في الكتابة قال : إنها شعبذة ، وحقاً ما يقوله الخوارزمي فإنها لا تفصح عن جمال ، وإنما تفصح عن لعب ، والخوارزمي لم يكن يفهم هذا اللعب لأنه ليس من قبيل زخرف التصنيع الذي يعهده ، غير أننا لا نمضي عند بديع الزمان حتى نحس تحولا في هذا الزخرف ، وهو تحول لا يتصل به مباشرة إنما يتصل بطرق أدائه ، فإذا هذه الطرق تصعب هذا التصعب الذي يحس فيه الخوارزمي ضرباً من ضروب الشعبذة ، وردَّ البديع عليه حين أنكر منه ذلك بقوله : « إنك لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة ، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم ، المتداول بكل يد وفم » ^(١) . ويقصّ علينا بديع الزمان أنه قرأ على الخوارزمي ومن حضروا مناظرتهما كتاباً منكوساً ثم سرده معكوساً وقال : « إن الجماعةُ بهتت والعيون زرقتُ » ^(٢) وفي إعجاب هذه الجماعة بشعبذته ما يدل على أننا أصبحنا على وشك الانتقال إلى مرحلة التصنع ، إذ أخذ الناس يعجبون بالطرق الغريبة في التعبير كأن الإغراب من حيث هو شيء له جلاله وخطره في صناعة الرسائل . وحقاً إن البديع لم يتحول في عمله كله إلى هذه الوجهة ، ولكننا نجد عنده بعض عناصرها وبعض مقدماتها ، بحيث لا نبعد إذا قلنا : إنه كان من أهم من رشّحوا للمذهب التصنع وظهوره .

مقامات البديع وما فيها من تصنع

ونحن نعرض لضرب جديد من الكتابة ابتكره بديع الزمان لئرى ما فيه من تصنع ، وهو ما اشتهر به من مقاماته ، وهي نوع من القصص القصيرة تحفل بالحركة التمثيلية ، وفيها تدور المحاوراة بين شخصين سُمي أحدهما عيسى بن

وظهر بياضها عجباً وحيرة .

(١) رسائل بديع الزمان ص ٧٦ .

(٢) الرسائل ص ٧٨ . وزرقت : انقلبت

هشام والآخِر أبا الفتح الإسكندري ، وهو من الأدباء السيارين أو المُكندين السائلين يطوف من مكان إلى مكان يستجدي الناس بفصاحته وبيانه ، يتقابل دائماً هذا الشخص المسمى بأبي الفتح الإسكندري مع زاوٍ له يحكى أخباره ، وهو عيسى بن هشام ، ويقول بديع الزمان - كما مر بنا - إنه أصنع أربعمئة قصة من هذا النوع أو كما يسميها هو مقامة^(١) ، غير أنه لم يصلنا منها إلا نيف وخمسون فقط وأكبر الظن أن بديع الزمان كان بصدد الافتخار والتزيد في عمله ، ولذلك ينبغي أن لا نفهم العدد الذي ذكره بمعناه الحرفي .

ويقف الباحثون عند كلمة مقامات التي أطلقها البديع على قصصه ويتساءلون عن المعاني التي جاءت فيها قبله^(٢) ، وإن من يرجع إلى الشعر الجاهلي يجدها تستعمل فيه بمعنى المجالس ، يقول زهير بن أبي سلمى في بعض شعره^(٣) :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهها وأنديّةٌ ينتابها القول والفعلُ
وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتهم مجالسٍ قد يُشْفَى بأحلامها الجهلُ

ثم توسع العرب في معنى الكلمة فأصبحوا يطلقونها على خطبهم وأحاديثهم التي يقولونها في مجالسهم ، وقد يفهم بيت زهير على هذا المعنى . واستمرت الكلمة تدل على المعنيين حتى عصر بديع الزمان نفسه ، إذ تجده يستخدمها في رسائله بمعنى المجالس^(٤) ، كما استخدمها الثعالبي بنفس المعنى^(٥) ، وفي أخبار البديع أنه كان يختم مقامه أو مجلسه في نيسابور بقصة من هذه القصص ، ولعله من أجل ذلك اختار لها اسم المقامات .

(١) الرسائل ص ٣٩٠ ، ٥١٦ وانظر اليتيمة (طبعة لايل) ص ١٢٢ والحامسة (طبع أوربا) ص ٩٥ . ٢٤١/٤ .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية في ترجمة بديع الزمان وفي كلمة مقامة أيضاً .

(٣) ديوان زهير (طبع دار الكتب) ص ١١٣ .

وانظر ديوان لبيد (طبع بريل) ص ٣٩ والمفضليات

(٤) رسائل بديع الزمان ص ١٠٦ .

(٥) انظر ما نقله ياقوت عن الثعالبي في معجم الأدباء (طبع مصر) ١٦٦/٢ .

وذكر الحصرى أن بديع الزمان ألف هذه المقامات معارضة لابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ إذ يقول إن البديع « لما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من يتابع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها إلى الأفكار والضمائر ، في معارض حوشية ، وألفاظ عنجھية ، فجاء أكثرها يتبوع عن قبول الطباع ، ولا تُرْفَعُ له حجب الأسماع . . . عارضه بأربعمائة مقامة في الكندية تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً » (١) على أنه ينبغي أن نلاحظ أحاديث ابن دريد تخالف مقامات الهمداني في موضوعها ، إذ أن ما رواه له القالي في كتابه الأمالي منها يدور غالباً حول حكايات عربية قديمة ، للتاريخ والحب فيها نصيب ، بينما أفاصيص بديع الزمان تدور على التسول والكندية ومع ذلك فالعلاقة بين العملين واضحة أولاً من حيث الاسم فإن من معاني كلمة مقامة التي اختارها بديع الزمان لقصصه « حديثاً » وتجمع على أحاديث وهو نفس الاسم الذي اقترحه ابن دريد لأفاصيصه؛ وثانياً من حيث الغاية فأحاديث ابن دريد ومقامات بديع الزمان ألفتا لغاية واحدة ، هي تعليم الناشئة اللغة .

والمقامات تصور حياة الأدباء السيارين الذين كانوا يسمون باسم الساسانيين نسبة إلى ساسان وهو شخص فارسي قديم يقال إن أباه حرمه من الملك ، فهم على وجهه محترفاً للكندية . ومن يقرأ في اليتيمة يجد طائفة الساسانيين هذه تحتل حيزاً في الحياة الأدبية للقرن الرابع الهجري ، وهي تشبه تمام الشبه طائفة « الأدبائية » التي اشتهرت عندنا بمصر في القرن التاسع عشر الميلادي ، إذ كانوا يتخذون الأدب والشعر وما يتصل بهما من فصاحة وبلاغة وسيلة إلى كسب المال وابتزازه ، ومن يرجع إلى بخلاء الجاحظ يجده يعرض لهذه الطائفة وحييلها (٢) . وقد تحدث عنها البيهقي في القرن الرابع (٣) ، وإذا استمررنا في هذا القرن إلى عصر بديع الزمان وجدنا هذه الطائفة تتضح شخصيتها في الحياة الاجتماعية بأوسع

(١) زهر الآداب للحصرى ١/٣٠٧ . (٢) المحاسن والمساوي للبيهقي طبع أوروبا

مما كانت عليه قبل ذلك ، اشتهر من شعرائها حيثشد الأحنف العكبري وأبو دلف الخزرجي ، أما الأحنف فيقول عنه صاحب اليتيمة : إنه « شاعر المكئدين وظيفهم ، ومليح الجملة والتفصيل منهم » ، وروى له بعقب ذلك قصيدة دالية طويلة عرض فيها لحرفة الكئدية عرضاً واسعاً^(١) ، وأما أبو دلف فيقول فيه صاحب اليتيمة : « شاعر كثير المُلح والطُرف ، مشحوذ المُدّية في الكئدية ، خنق التسعين في الإطراب والاعتراب ، وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجراب ، في خدمة العلوم والآداب . . وكان يتتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده . ولما أتحنفه بقصيدته التي عارض بها دالية الأحنف العكبري في المناكاة وذكر المكئدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم . . اهتز ونشط لها ، وتبجح بها ، وتحفظها كلها وأجزل صلته عليها »^(٢) . وهي قصيدة طويلة رواها صاحب اليتيمة ، وفيها ذكر الأحنف الألفاظ الاصطلاحية لأهل الكئدية وما كانوا يتخذونه في مناجاتهم أي كلامهم الذي يتكدون به من مصطلحات خاصة ، كما ذكر حيلهم وتفننهم في هذه الحيل على صور شتى^(٣) وعرض بديع الزمان في مقاماته لكثير من هذه الحيل^(٤) ، كما سمي مقامة له باسم المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة ، وما لنا نذهب بعيداً ، وقد كان البديع نفسه راوية لأبي دلف^(٥) فقد نسب إلى أبي الفتح الإسكندري بطل مقاماته هذه الأبيات^(٦) :

ويحك هذا الزمان زورُ فلا يغرنَّك الغُرورُ
زورُ ومُخرِقُ وكلُّ وأطبِقُ واسرقُ وطلِّبُ لمن يزورُ
لا تلتزم حالةً ولكنُ درُ بالليالي كما تدورُ

وهي من شعر أبي دلف^(٧) . وكل ذلك يؤكد الصلة ويوثقها بين بديع

- | | |
|--|--|
| (١) اليتيمة ١٠٤/٣ . | (٢) اليتيمة ٣٢١/٣ . |
| (٣) اليتيمة ٣٢٣/٣ . | (٤) انظر المقامة الرصافية في مجموع مقاماته |
| (٤) انظر المقامة الرصافية في مجموع مقاماته | وهي تعتبر من بعض الوجوه ثراً لقصيدة |
| (٥) اليتيمة ٣٢٤/٣ . | |
| (٦) انظر المقامة الأولى من مقاماته وهي المقامة القرظية . | |
| (٧) اليتيمة ٣٢٣/٣ . | |

الزمان في مقاماته وبين أهل الكُندية في زمنه، ومهما يكن فقد استطاع بديع الزمان أن ينفذ من نمو هذه الطائفة في عصره وما اشتهرت به من حيلها إلى صنع مقاماته. ويسوق البديع هذه المقامات في شكل قصص درامية صغيرة، يمكن أن تعتبر المقامات كلها قصة واحدة تعبر عن أطوار مستقلة من حياة بطلها أبي الفتح الإسكندري، أو قل إنها تعبر عن حوادث مستقلة من أيامه. صيغت في أسلوب قصصي يشيع فيه الحوار، وفيها نرى أبا الفتح يحتال على الناس بطرق مختلفة من بلاغته، ليهيئ آمولهم، وفي أغلب أمره يلتقي به عيسى بن هشام فيعجب بفصاحته ويكشف اللثام عن وجهه، وفي كل مرة لا يخطئه، فهو دائماً أبو الفتح الإسكندري! . . . وما من ريب في أن هذه الصورة تخرج في كثير من جوانبها بالمقامات عن أسلوب القصص المشوق إلى أسلوب السرد، وإن كنا لا نعلم فيها القصص الدرامية الطريفة.

وكان همُّ بديع الزمان الأول أن يجمع في كل مقامة من مقاماته طائفة من الأساليب البلاغية المصنعة التي تعتمد على السجع والبديع، وإنه ليسرف في تجميل كل مقامة بأوسع طاقة ممكنة من الزخرف والزينة والتنميق، ومن ثمَّ انصرف عن الموضوع إلى الأسلوب وذهب يحمله ويرصعه فنوناً من التجميل والترصيع، فالترصيع والتجميل هما غايته من عمله حتى تستوى له طرْفُ إنشائية بليغة تروّع معاصريه، وقد كان القدماء أنفسهم يعرفون ذلك، يقول ابن الطقطقي: «إن المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر»^(١). وإن من يتابع البديع في مقاماته يحس حقاً أنه ألفها لغرض التمرن على الكتابة والإنشاء، فإنه يعني دائماً بالوصف، ولا يصف شيئاً إلا راكم فيه العبارات «ورصّها رصّاً» ليختار منها الكاتب ما يريد، وانظر إليه يصف الحمر على لسان ربة حانة فيقول^(٢):

« هذه خمر كأنما اعتصرها من خدّي ، أجداد جدّي ، وسربلواها من القار

(١) الفخرى في الآداب السلطانية (طبع) (٢) انظر في ذلك المقامة الحميرية .

بمثل هجرى وصدتى ، وديعة الدهور ، وخبیثة جیب السرور ، وما زالت
تتوارثها الأخيار ، ويأخذ منها الليل والنهار ، حتى لم يبق إلا أَرَجٌ وشعاع ،
ووهجٌ لذّاع . ریحانة النفس وضرة الشمس ، فتاة البرق ^(١) ، عجوز
المثلث ، كاللهب فى العروق ، وكبرد النسيم فى الخاق ، مصباح الفكر ،
وترياق سم الدهر ، بمثلها عُزّر الميت ، فانتشر ودُووى الأكمة فأبصر .

ألتحس بأن بدیع الزمان يحاول هنا أن يجمع أكثر ما يمكنه من أوصاف
الخمر ليسلكها فى عقد مقاماته ، وهو ينظر إلى كل عبارة كأنها جوهرة يريد أن
يضعها فى هذا العقد حتى تتلأأ بقوة أوسع من قوة جاريتها ، وما يزال يحتال
على هذه الجواهر يضمها بعضها إلى بعض حتى ينال استحسان سامعيه فى
نيسابور موطن الخوارزمي وموطن فصاحته ، وما اشتهر به من بلاغته ، وكأنه
يريد أن يصرف تلاميذه عنه بما يروعههم به من هذه الأساليب المصنعة التى
تتراكم فى مقاماته تراكمًا ، وانظرُ إليه يقول فى المقامة الأُسدية :

« اتفقت لى حاجة بِحِمَص ، فشحذت إليها الحِرص ، فى صحبة أفراد
كنجوم الليل ، أحلاس ^(٢) لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ،
ونستأصل شأفته ، ولم نزل نفرى ^(٣) أسنمة النجاد ، بتلك الجياد ، حتى صرنا
كالصبي ، ورجعن كالقسي ، وتاح ^(٤) لنا واد فى سفح جبل ، ذى الأء وأثل ^(٥) ،
كالعدارى يسرحن الضفائر ، وينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا إليها ،
ونزلنا نفور ونفور ^(٦) ، وربطنا الأفراس بالأمراس ^(٧) ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا
إلا صهيل الخيل ، ونظرت إلى فرسى وقد أرفف أذنيه ، وطمّح بعينيه ، يجذ
قوى الخيل بمشافره ، ويخذ خد الأرض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فتقطعت
الجبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا إلى سلاحه فإذا السبع

- (١) البرق: التزيين: يريد أن الخمر كالفتاة فى زينتها ثم هى كالمجوز فى تملقها وتوددها .
(٢) أحلاس : جمع حلس وهو الملازم .
(٣) نفرى : نقطع ، والنجاد : جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض .
(٤) تاح : عرض .
(٥) الأء وأثل : من أشجار البادية .
(٦) نفور : نهبط فى الأودية ، نفور : ندام .
(٧) الأمراس : الجبال .

في فَرَوَة الموت ، قد طلع من غابه ، منتفخاً في إهابه ، كاشراً عن أنيابه ،
بطرف قد مُلِيَّ صَلفاً ، وأنف قد حُشِيَّ أذْفاً ، وصَدْرٌ لا يبرحه القلب ،
ولا يسكنه الرَّعْبُ ، وقلنا خطب مُلِيمٌ ، وحادث مهم ، وتبادر إليه من سرعان
الرفقة فتي :

أخضرُ الجِلْدَةِ في بيت العرب يملاً الدَّلْوَ إلى عقْد الكَرْبِ (١)

بقلب ساقه قدر ، وسيف كله أثر ، وملكته سورَه الأسد ، فمخازنه
أرض قدمه ، حتى سقط ليدَه وفه ، وتجاوز الأسد مصرعه ، إلى من كان معه ،
ودعا الحَيْنَ (٢) أخاه ، بمثل ما دعاه ، فصار إليه ، وعَقَلَ الرَّعْبَ يديه ، فأخذ
أرضه ، وافترش الليث صدره ، ولكني رميته بعمامي وشغلت فه ، حتى
حققت دمه ، وقام الفتي فوجاً (٣) بطنه حتى هلك الفتي من خوفه ، والأسد للوجأة
في جوفه .

وأنت ترى أن بديع الزمان يعني عناية واضحة برصف أسجاعه مضيفاً
عليها ألواناً من البديع وخاصة من الجناس والتصوير ، إذ كان يهتم بهما اهتماماً
واسعاً ، كما كان يهتم بشيء آخر وهو كثرة حشده للغريب في مقاماته
على نحو ما نرى في المقامة الشهيدية . وارجع إلى المقامة الحمدانية فستراه
هناك يصف فرساً فيعنت نفسه في الإتيان باللفظ الغريب حتى إذا استوفى
من ذلك ما يريد ، عاد فشرح لفظه كأنه أستاذ من أساتذة اللغة ، لا أديب
ينشئ قصة ، وهذا نفسه أحد الأدلة على أنه لم يرد بكثير من مقاماته إلى غاية
قصصية خالصة ، إنما أراد بها إلى غاية تعليمية ، وقد أدته هذه الغاية إلى أن يكثُر
من الأساليب المصنَّعة ، كما أدته إلى أن يكثُر من اللفظ الغريب ، وقد تلوَّم
من أجلهما الجاحظ وحمل عليه حملة شعواء في مقامة سماها المقامة الجاحظية ،
وفيها يقول عنه : إنه « قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، متقاد لعريان

(١) أخضر هنا : أسمر . والسرة هي اللون

الخاص بالعرب . الكرب : قطعة حبل تربط

في الخشبتين المعترضتين في فم الدلو : والشطر

مثل يضرب للمغلوب في أي شيء .

(٢) الحين : الموت .

(٣) رجاً بطنه : شقها .

الكلام يستعمله ، نفور من مُعتاضه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة . ونحن لا نلوم البديع على اهتمامه بالاستعارات لأنها كانت لإحدى زخارف مذهب التصنيع ، ولكن نلومه على اهتمامه بالكلمات المعتاضة الغريبة غير المسموعة ، فإن إغراب الكلمات من حيث هو لا يمكن أن يعتبر زخرفاً أو تجميلاً وتصنيعاً ، بل إنه يعتبر عيباً وآفة حين يحتكم إليه الكاتب في فنه ، وما الجمال الذي يستهويه فيه ؟ إنه يخلو من كل جمال ، وإنه لدليل على أن وسائل الأداء في النثر أخذت تتعقد منذ البديع ، إذ ينجح الكاتب إلى وسائل لا تتصل بالفن وإنما تتصل بالإغراب من حيث هو ، ومن أجل ذلك كنا نزعم أن بديع الزمان - على الرغم من أنه علم من أعلام فن التصنيع - أخذ التصنيع يتسرب إلى آثاره ونماذجه في رسائله ومقاماته ، وهل أدل على ذلك من أنه كان يتخذ اللفظ الغريب كطرفة فنية يعيب بها الجاحظ وغيره من سابقه ، وحقاً إنه لم يطبق ذلك على كل مقاماته ولا على كل جوانبها ، ولكنه على كل حال عنى به فيها كما عنى به في رسائله .

وبجانب عنايته باللفظ الغريب في المقامات نجده يعنى بما سبق أن عرضنا له من كثرة تضمين الشعر ، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، وحشد بعض الأمثال . وكل هذه المظاهر سراها واضحة عند أصحاب مذهب التصنيع ، وأيضاً فإنه كان يعنى في المقامات بتعميق أداة التصنيع التي كان يعجب بها وهي أداة الجناس ، وربما كانت أحد الأسباب التي جعلته يعنى بالغريب فإن المعجم العادى قد لا يعطيه الكلمة التي يريد ، فيبحث عنها في المعجم الغريب ، وحينئذ لا يهمله إبهامها ولا اعتياصها كقوله : « أميس ميسس - الرجل ، على شاطىء الدجلة »^(١) ، فإن مجانسته لكلمة الدجلة هي التي اضطرتته إلى كلمة الرجل ، وهي جمع رجل ، وهو جمع شاذ ، لكنه عدل إليه من أجل جناسه ، ومثل ذلك أيضاً قوله : « فأخذ الجُفّ » ، وملكته

(١) مقامات بديع الزمان (الطبعة الثانية

بيروت) ص ١٠١ .

الأكف»^(١) ، والجحف : العدد الكثير من الناس ، ومثله قوله : «الإكراه مرة بالمرّة ، ومرة بالدرّة»^(٢) ، والمرّة هنا العقل ، وقد استخدمها لغرض الجناس بينها وبين الدرّة . وعلى هذا النحو كانت تضطره المجانسة أحياناً إلى ما يركب من لفظه الغريب ، وليس ذلك كل ما يلاحظ في جناسه ، فإننا نلاحظ عليه أيضاً الإفراط فيه حتى يعدل كثيراً إلى الجناس الناقص من جهة كما يعدل إلى الجناس المعكوس من جهة أخرى على نحو ما نرى في مثل قوله : «ولكنى أبو العجائب عاينتها وعانيتها ، وأم الكباثر قايستها وقايستها»^(٣) ، فقد قلب عاينتها فخرجت له عانيتها ، وقلب قايستها فخرجت له قاسيتها ، ومن ذلك قوله : «بينما أنا أسير في بلاد تميم مرتحلاً نجيباً ، وقائداً جنيباً»^(٤) ، فقد قلب نجيباً فخرجت له جنيباً ، ومن ذلك قوله : «أعاني الفقر ، وأمانى القفر»^(٥) ، فقد قلب الفقر فخرجت له القفر ، ومثل ذلك أيضاً قوله : «يزهى بحليته ، ويباهى بالحيته»^(٦) فقد قلب حليته فخرجت له لحيته .

وما من ريب في أن هذه الجوانب كلها عند البديع هي التي تجعلنا نزعم أنه كان مقدمة من مقدمات مذهب التصنع ، وليس معنى ذلك أنه يخرج عن مذهب التصنيع وإطاره ، بل هو أحد أساتذته في عصره ، حتى لتشبه المقامة من مقاماته واجهة أحد المساجد المزخرفة لعهدده ، لكثرة ما شغل فيه بالتنميق والتصنيع والترصيع ، وغاية ما في الأمر أنه وجد في هذه المرحلة التي أخذت تتحول فيها صناعة النثر العربي من مذهب التصنيع إلى مذهب التصنع ، فتسربت شيات وسمات من ذلك إلى عمله ، ولأنها لشيات وسمات تدل على أننا أصبحنا على وشك التلاقي بمذهب التصنع وكبار أنصاره وأصحابه .

(١) المقامات ص ١٠٦ .
 (٢) مقامات بديع الزمان ص ١٢٩ . والدرّة :
 العصى .
 (٣) نفس المصدر ص ٤٣ .
 (٤) نفس المصدر ص ٥٣ . وأمانى : أدارى
 من فزعى .
 (٥) نفس المصدر ص ٢٦ .
 (٦) نفس المصدر ص ١٩٣ .

قابوس بن وشمكير وتصنعه

هو أمير من أمراء الأسرة الزيارية التي كانت تحكم طبرستان وجرجان ، وهما ولايتان تقعان في الجنوب والجنوب الشرق لبحر طبرستان ، أو كما يسمى الآن بحر الخزر ، والزياريون ينحدرون من بيت عظيم من بيوت الفرس ، إذ يقال إنهم ينتسبون إلى ملك ساساني هو قُباذ^(١) . وقد ولي قابوس الحكم عام ٣٦٧ هـ^(٢) ولقبه خليفة بغداد — على عادته في تلقيب حكام الولايات الفارسية ألقاباً مختلفة — بلقب شمس المعالي^(٣) ، واستهدف في أوائل حكمه لغارات كثيرة من بني بويه ، وما زالوا به حتى فر من إمارته عام ٣٧١ هـ إلى السامانيين ، حيث عاش مكرماً حتى عام ٣٨٨ وهو العام الذي توفي فيه فخر الدولة البويهى ، وفيه استرد ملكه^(٤) . على أن جنده وقواده حاصروه في أواخر حياته ، لما كان فيه من بطش شديد ، واضطروه إلى التنازل عن ملكه لابنه منوجهر ، يقول العتبي : « قد كان قابوس على ما خُصَّ به من المناقب ، والرأى البصير بالعواقب ، والمجد المنيف على النجم الثاقب ، مُرَّ السياسة ، لا تستساغ كأسه ، ولا تؤمن بحال سطوته وبأسه ، يقابل زلة القدم بإراقة الدم . . . وما زالت هذه حاله حتى استوحشت النفوس منه . . . وتآمر أعيان العسكر على خلعه »^(٥) . فخلعوه ، واضطر ابنه أن ينزل على إرادتهم وأن يخلع أباه ، بل لقد حبسه في إحدى القلاع بجرجان واستمر بها حتى اغتيل عام ٤٠٣ هـ^(٦) .

وكان قابوس واسع المروعة ، على النفس ، بعيد الهمة ، لا يجب الملوك

(٤) نفس المصدر ٢٢٧/١٦ .

Browne, Lit. Hist. of Persia, 11, (١) pp. 91, 103.

(٥) اليميني للعتبي مع شرح المنيني ١٧٢/٢ .

(٢) معجم الأدباء ٢٢٠/١٦ .

(٦) نفس المصدر ١٧٥/٢ ومعجم الأدباء

(٣) نفس المصدر ٢٢٠/١٦ .

. ٢٢١/١٦

ولا المداهنة ، حتى قالوا إنه كان يأبى أن يستمع إلى مدائح الشعراء له ، مع عطفه عليهم ، وبسبب ذلك لم الجوائز والمكافآت ^(١) . وقد زاره البيروني وقدم له كتابه « الآثار الباقية » ، كما قدم له الثعالبي « كتابي المبهج » و« التمثيل والمحاضرة » . ومعنى ذلك أنه كان يشجع الأدباء والعلماء . وكان أديباً ممتازاً نال حظاً واسعاً من ثقافة عصره وخاصة الفلسفة وعلم الفلك والنجوم ^(٢) . يقول الثعالبي : « جمع الله له إلى عزة الملك بسطة العلم » ^(٣) ، ويقول العتبي : « لم يسمع في شيوخ الملوك بأبرع منه في الآداب والحكم » ^(٤) ، وقد مدحه أحد الشعراء مستغلاً لقبه « شمس الدولة » فقال ^(٥) :

لله شمسان تذكيرٌ لخيرهما وللمؤنثة النقصانُ ملتزمٌ
أزرى بتلك سنّاً من غير معرفة فيها وزين هذا العلم والكرمُ
يا أيها الملك الميمونُ طائرهُ وخير من في الوري يمشى به انقدمُ
لو كنت من قبل ترعانا وتكفنا لما تهدي إلينا الشيب والهرمُ

وأشهر قابوس ببيانه وفصاحته ، يقول الثعالبي : « إنى أتوج هذا الكتاب بيلمع من ثمار بلاغته » ^(٦) ويقول العتبي : « إن رسائله موجودة في البلاد ، عند الأفراد لكنى أكنى منها بلعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه » ^(٧) . وقد جمع اليزدادي في عصر قريب من عصر قابوس هذه الرسائل وسماها كمال البلاغة ، وقدم لها بمقدمة طريفة أشاد فيها ببلاغته ، ثم حاول أن يحلل هذه البلاغة فاستخرج منها أربعة عشر نوعاً في طريقة التسجيع واستخدام القرائن واللوازم المتصلة بالسجعات ، وإن نظرة في هذا الكتاب تجعل القارئ يحس مدى التعقيدات التي كان يتخذها قابوس في حرفته ، ولسنا ندرى من أين جاءت هذه التعقيدات إلا أن يكون للفرغ الذي

(١) معجم الأدباء ١٦/٢٢٩ .
(٢) انظر كتاب براون السابق ١٠٣/٢ .
(٣) اليتيمة ٥٦/٤ .
(٤) اليعتبي مع شرح المنبئي ١٧/٢ .
(٥) اليتيمة ٤٧/٤ واليعتبي ١١٥/١ .
(٦) اليتيمة ٥٦/٤ .
(٧) اليعتبي ١٧/٢ .

أصابه وهو معزول عن حكمه أثر في ذلك ، وهو فراغ طال طولاً شديداً ، نحو ثمانية عشر عاماً لم يكن له فيها أى عمل ، فإذا يصنع ؟ وكيف يمضى أوقات فراغه ؟ هل يعتمد إلى اللهو ؟ كلا فإن العتي يقول : « إنه فطم نفسه عن رضاع الملاهي » (١) . إذاً فكيف يصنع بهذا الفراغ الهائل الذى امتد أياماً بل أسابيع وشهوراً ، بل أعواماً ، بل ثمانية عشر عاماً ؟ لقد اتجه إلى الأدب يقطع به هذا الفراغ ، فهو يتخذ لهوه ، أو قل يتخذ لهُعبته ، وقد تحولت عنده هذه اللعبة إلى ما يشبه لعبة الشطرنج التى كانت شائعة في عصره ، فهو يمضى فيه الساعات الطوال ، بل قل الأشهر الطوال والسنين الطوال ، يعبث به ويلعب بأسجاعه ، ويحاول أن يصل في أثناء هذا العبث واللعب إلى ما لم يصل إليه أى كاتب في عصره ، أليس هو الأمير ابن الأمراء الذى كان آباؤه يجلسون على أسرة من ذهب (٢) ؟ إنه ليصنع — على طريقة كتاب عصره — فيحسن التصنيع ، ولكنه يرى ذلك شيئاً عادياً بالقياس إليه وهو لا يعطيه ما يريده من تفوق عليهم ، لذلك نراه ينجح إلى فنون من التعقيد في أداء تصنيعه ، وهي فنون تنتقل به وبعمله إلى مذهب جديد هو مذهب التصنع وهو مذهب جرّه إليه لإغرامه بالإغراب في استخدام أدوات التصنيع ، واستمع إليه يكتب إلى خاله الإصْبَهَبْد ، وهو أحد قائدين أيداه في العودة إلى ملكه ، لأنه عاد فأخذ في أحد الحصون إلى جانب المجانبة (٣) ، فكتب إليه بهذه الرسالة (٤) :

« الإنسانُ خُلِقَ ألوفاً ، وطبع عطوفاً فما للإصْبَهَبْد سبى لا يُحْسِنُ عَوْدَهُ ، ولا يُرْجى عَوْدَهُ ، ولا يُخَالُ لِفَيْئَتِهِ خَيْلَةً ، ولا يُخَالُ تَنْكِرَهُ بِحَيْلَةٍ ، أَمِنْ صَخْرٍ تَدْمِرُ قَلْبَهُ فليس يُلِينُهُ الْعَتَابُ ، أَمِنْ الْحَلِيدِ جَانِبِهِ فلا يُبِيلُهُ الْإِعْتَابُ ، أَمِنْ صَفَاقَةِ دَهْرٍ مَجْنُ نُبُوهُ فَقَدْ نَبَا عَنْهُ غَرْبُ كُلِّ حِجَاجٍ ، أَمِنْ قِسَاوَتِهِ مَزَاجِ إِيَابَتِهِ فَقَدْ أَبَى عَلَى كُلِّ عِلَاجٍ . ما هذا الاختيار الذى يعدد الوهم فهماً ،

(٤) انظر كمال البلاغة وهو يتضمن رسائل شمس

(١) البيهقي ١٦/٢ .

المعالى فابوس بن وشمكير (طبع المطبعة السلفية)

(٢) معجم الأدباء ١٦/٢١٩ .

ص ٥٣ .

(٣) البيهقي ١٤/٢ .

وهذا التمييز الذى يحسب الخير شراً؟ وما هذا الرأى الذى يزين له قبح العقوق ،
ويُحتمت إليه رعاية الحقوق؟ وما هذا الإعراض الذى صار ضربة لازب ،
والنسيان الذى أنساه كل واجب؟ أين الطبع الذى هو للصدود صدود ، ولتألف
أوف وودود؟ وأين الخُلُق الذى هو فى وجه الدنيا البشاشة والبشر ، وفى مبسمها
الثنايا الغمر؟ وأين الحياء الذى يجلى بحاسنه الكرم ، وتهللى بحاسنه الشيم؟
كيف يُزهد فى من ملك عنان الدهر فهو طوع قياده ، وتبع مراده ، يُنظر
أمره ليمثل ، ويُرقبُ نبيه فيعتزل؟ وكيف يُعرض عن تُعرض رفاهة العيش
بإعراضه ، وتنقبض الأرزاق بانقباضه ، ومن أضواء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهل هلال
الجد إذا تهلل؟ وكيف يُزهى على من تحقر فى عينه الدنيا ، ويرى تحته
السماء العليا ، قد ركب عنق الفلك ، واستوى على ذات الحُبك ، فتبرجت
له البروج ، وتكوكبت لعبادته الكواكب ، واستجارت بعزته الحجر ، وأثرت
بمآثره أوضاع الثرى؟ بل كيف يهون من لو شاء عقد الهواء ، وجسم الهباء ،
وفصل تراكيب السماء ، وألف بين النار والماء ، وأكمد ضياء الشمس والقمر ،
وكفاهما عناء السير والسفر ، وسد مناخر الرياح الزعازع ، وطبق أجفان البروق
اللوامع ، وقطع ألسنة الرعود بسيف الوعيد ، ونظم صوب الغمام نظم الفريد ،
ورفع عن الأرض سطوة الزلازل ، وقضى بما يراه على القضاء النازل ، وعرض
الشیطان معرض الإنسان ، وكحل الحور العين بصور الغيلان ، وأنبت العشب
على البحار ، وألبس الليل ضوء النهار؟ ولم لا يعلم أن مهاجرة من هذه قدرته
ضلال ، ومباينة من هذه صفته خبال ، وأن من له هذه المعجزات يُشتري
رضاه بالنفس والحياة ، ومن أتى بهذه الآيات يبتغى هواه بالصوم والصلاة . . .
وليس إلحاحى على سيدى مستعبداً وصاله ، ومستصلحاً خصاله ، وعهدتى عليه
هذه العجائب ، ووئوبى لاسمالة من جانب إلى جانب ، لأنى كنت ممن
يرغب فى راغب عن وصلته ، أو ينزع إلى نازع عن خلدته ، أو يؤثّل حالا
عند من ينحت أنثلتته ، أو يقبل بوجهه على من لا يجعله قبيلته ، فإنى لو عامت
أن الأرض لا تسفُ تراب قدمى بلحنتها جنبي ، وأن السماء لا تتوق إلى تقبيل

هامتي لقلبت عن ذكرها قلبي ، لكني أكره أن يتعري نَحْرُهُ من قلائد الحمد ،
ويجتنب جبينه إكليل المجد . . ولا يعجبني أن يكسو ضوه مكارمه كَلَفُ
الحمول ، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول ، فإن فضل سيدي الحمد على الوقود ،
والعدم على الوجود ، ونزل من شاقق إلى خفض ، ومن حالق إلى أرض ،
وهاجر بهجره ، وأصرّ على صرمه ، ومال إلى الملل ، ولم يصلّ نار الوصال ،
حللتُ عنه معقود خنصرى ، وشغلت عن الشغل به خاطرى ، بل محوت ذكره
عن صفحة فؤادى ، واعتدت ودّه فيما سال به الوادى :

ففي الناس إن رثتُ حبالك واصلٌ وفي الأرض عن دار القليتى متحوّلٌ

وأنت ترى شييات التصنع واضحة في هذه الرسالة ، لا بما يعمد إليه
قابوس من مبالغات وصور غريبة فحسب ، بل بما يعمد إليه من استخدام
الجناس استخداماً معقداً ، وإنه لتعقيد يبدو في جميع جوانب الرسالة ،
وانظرُ إليه في مستهلها يجانس بين عوده وعَوْدِهِ ، وهو جناس نراه في جميع
رسائله ، إذ يعمد إلى المغايرة في بعض الحركات أو بعض الحروف ، فإذا
هو يقع على مثل هذا الجناس الذى يمكن أن نسميه جناس الخطّ ، وقد يكون
لجمال خطه أثر فيه ، يقول العتيبي : « أما خطّه فسمّه إن شئت شيئاً محبوباً ،
أو تبراً مسبوکاً ، أو درّاً مفصّلاً ، أو سحرّاً محصلاً ، وكان إسماعيل بن عباد
(الصاحب) إذا قرأ خطه يقول : هذا خطّ قابوس أم جناح طاووس » (١) .
وأفرط في استخدام هذا الجناس الخطي ، إذ تعود أن يعيد الكلمة التي
كتبها بشكل جميل مرة أخرى مع إعطائها حركة جديدة أو مع تبديل بعض
حروفها ، فإذا هو يكثر من هذا الجناس في رسائله إكثاراً ، واستمر في
قراءة الرسالة فسترى هذه السجعة « ولا يخال لفيثته نخيلة ، ولا يخال تنكروه
بجيلة » . وواضح أنه جانس هنا جناساً خطياً بين يخال ويخال كما جانس
نفس الجناس بين نخيلة ومخيلة . وليس ذلك كل ما عني به ، فقد عني بشيء

(١) اليميني مع شرح المنيني ٢/٢٦٠ .

آخر لعله أكثر من ذلك تعقيداً ، وهو أنه جانس بين أول كلمة في السجعة الأولى وآخرها أى بين بحال وبجيلة ، وكذلك صنع بالسجعة الثانية إذ جانس بين بحال وبجيلة ، وإن في ذلك ما يجعلنا نحس أنه يصعب على نفسه الممرات التي يسلكها إلى نهاية قرائنه وأسجاعه ، فهو يبدأ عبارته بكلمة ثم يطلب الجناس بينها وبين آخر كلمة فيها ، وهو يتخذ ذلك مصراً عليه ، إذ نراه يعدل إليه مراراً في هذه الرسالة وفي رسائله الأخرى، وتأمل هذه السجعة الطويلة في الرسالة: « أم من صفاقة الدهر مجنّ نُبُوّه ، فقد نبا عنه غرب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إباته ، فقد أبى على كل علاج » ، فإنك تراه يسجع العبارتين تسجيحاً داخلياً فإذا هما تنحلان إلى أربع سجعات لا إلى سجتين كما يبدو في الظاهر . ولكن ليس هذا ما يلفتنا عند قابوس ، إنما يلفتنا أنه أنهى السجعة الداخلية الأولى بكلمة اشتق منها أخرى في مطلع الجملة التالية لها ، وكذلك صنع السجعة الداخلية الثانية . رأيت إلى الممرات كيف تعقدّ وتصعب بطرق شتى ؟ واستمر في الرسالة فسراه يأتي بطريقة ثالثة ؛ إذ يجانس بين كلمة في داخل العبارة وبين نهايتها كقوله : « أضواء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهل هلال المجد إذا تهلل » . ولا تظن أن هذه طرفة بل هي عقدة ، فقد أصبح الفن في رأى قابوس عقداً خالصة ، وهو لذلك يعقد عباراته هذا التعقيد الذي يصعب فيه الممرات إليها على نحو ما مر من أمثلة ، وكما نرى في هذه العبارات بالرسالة نفسها « تبرجت له البروج ، وتكوكبت لعبادته الكواكب ، واستجارت بعزته الحجرة ، وأثرت بماثره أوضاع الثريا » ، وما من ريب في أن هذه الجناسات تحمل أوسع سمات للتصنع ، إذ نراه يلزق الجناس بكلامه تلزيقاً ، وإن الإنسان ليشعر كأنما فقد الجناس بهجته القديمة من الزخرف والتصنيع ، فقد تحول إلى صورة جديدة تستطيع أن تسميها صورة هندسية ولكنك لا تستطيع أن تسميها صورة زخرفية لأنها لا تحوى حسناً ولا جمالاً، وهل هناك حسن أو جمال في قوله : « كنت ممن يرغب في راغب عن وصلته ، أو يتزع إلى نازع عن خلته » . أو قوله : « يؤئل حالاً عند من ينحت أثلته ،

أو يقبل بوجهه على من لا يجعله قبلته « أو قوله : « هاجر بهجره ، وأصرَّ على صرْمه ، ومال إلى الملل ، ولم يَصَلِّ نارالوصال » . وما نارالوصال هذه التي يريد أن يصلها ؟ إنها صورة غريبة ، بل هي صورة شاذة نابية ، ولكن قابوس لا يعنى بما فيها من شذوذ ونبو ما دامت تحقق ما يريد من جناس بين كلمة الوصال وكلمة أخرى ، إلا فلتكن هذه الكلمة أى لفظه ، ولتحو أى صورة ، فإن ذلك لا يهم قابوس ما دام يحقق له غاياته من جناساته .

وأكبر الظن أننا لا نبعد - بعد ذلك - إذا قلنا إن صناعة قابوس كانت تقوم على التصنع وما يطوى فيه من تعقيد وتعمل ، إذ نراه يتعمل في حركات الكلمة أو في حروفها ليحدث بعض جناسات بينها وبين غيرها ، ثم هو لا يكتفى بذلك إذ نراه يعدل إلى تصعيب ممراته ليحدث جناساته اللفظية المعقدة ، وكأنما كانت غاياته دائماً هي التصعيب والتعقيد ، وإنه ليركب إليهما طرقاً وعرّة .

٨

ذبوع التصنع وانتشاره

رأينا زخرف الجناس عند قابوس يتعقد تعقداً شديداً ، ومن قبله رأينا الخوارزمي وبديع الزمان يعقدان في فئهما ألواناً من التعقيد ، مما دفعنا إلى القول بأن عناصر من التصنع أخذت تتسرب إلى آثار أصحاب مذهب التصنيع ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن كل شيء في الفن يريد أن يتعقد ويتصعب ، وليس هذا شيئاً غريباً في تاريخ الحضارات ولا في تاريخ الآداب في الأمم المختلفة ، بل هو الشيء الطبيعي ، إذ نرى الأمم حينما ترقى عقلياً وحضارياً تتحول من الأحوال الطبيعية في التعبير إلى أحوال جديدة كلها تعقيد وتصعيب في الأداء والأسلوب . وقد حدث ذلك قديماً عند اليونان في القرنين الرابع والخامس

للميلاد؛ إذ نرى شعراء الإسكندرية يحولون نماذجهم إلى مجاميع من التعقيدات، وكذلك كان الشأن عند العرب في أواخر القرن الرابع للهجرة؛ إذ نراهم ينالون قبل هذا التاريخ كل ما كانوا يصبون إليه من ترف عقلي وحضاري، حتى إذا بشِموا رأيناهم يتحولون إلى تعقيدات مختلفة في حياتهم من جهة وفي أدبهم من جهة أخرى، ولعل من أروع ما يصور ذلك الجانب في حياتهم ما يروى عن الوزير المهلب المتوفى عام ٣٥٢ هـ من أنه كان «إذا أراد أكل شيء بملقعة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملقعة زجاجاً مجرداً، فيأخذ منه ملقعة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام في الجانب الأيسر، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى، حتى ينال الكفاية، لثلاث يعيد الملقعة إلى فيه دفعة ثانية»^(١). وحقاً إن الوزير المهلب سبق ظهور مذهب التصنع في النثر بنحو نصف قرن، ولكنه على كل حال يرمز إلى لهذا الميل الحديد في الحضارة العربية، وأنها أخذت تتعقد على نحو تعقيد المهلبى لوسيلة طعامه، فإذا هو لا يأكل بملقعة واحدة وإنما يأكل بملاعق مختلفة!

وهذا التعقيد في الحضارة العربية أخذ يتسرب إلى الكتابة الفنية أول الأمر في شيء من الاستحياء، فإن الخوارزمي يفرغ إلى مبالغاته وتمويلاته كما يفرغ إلى الإفراط في استخدام ألوان البديع، علة يشفي غلطة من غال التعقيد. ثم يأتي من بعده بديع الزمان فيتقدم خطوات في هذه الطريق، فإذا هو يعقد بعض وسائل التصنيع وخاصة وسيلة الجناس، وإنه ليلجأ إلى وسيلة جديدة غير مفهومة هي اللفظ الغريب، وهو لا يكتفي بذلك، بل نراه يعتمد إلى ما سماه الخوارزمي شعبدة، إذ كان يحاول أن يكتب كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل مثل الرءاء، أو كتاباً خالياً من الألف واللام أو خالياً من الحروف العواطل أو أول سطره كلها ميم وآخرها جيم، إلى غير ذلك من الأعياب كان يسوقها ليدل على مهارته، ومع ذلك فقد كان

(١) معجم الأدباء ١٣/١٠٣.

بديع الزمان من أصحاب مذهب التصنيع ، إذ كان يعتمد إلى هذه الجوانب في القلة ، ولم يكن يعممها في آثاره ، بل هي تظهر من حين إلى حين دالة على أننا أصبحنا داخل مرحلة التحول إلى المذهب الجديد مذهب التصنيع والتعقيد . ونحن لا نترك البديع إلى قابوس حتى نجدته بخطوة جديدة نحو مذهب التصنيع ، إذ نراه يعتمد إلى التعقيد في كل ما يكتب ، وقد اختار زخرف الجناس ليحدث فيه كل ما يستطيعه من هذا التعقيد وما يطوى فيه من تصعيب ، كان التصعيب شيء يقصد لذاته . وهذا هو الذي دفعنا إلى أن نسلكه في أصحاب التصنيع ، إذ كان يُعنى في فنه بالتعقيد عناية جعلت هذا الفن أشبه ما يكون بالتمارين الهندسية ، ولأنها لتمرين يجد فيها كل ما يريد من متعة بالفن ، فالفن عنده ليس إلا التصعيب والتعقيد . وقد أخذ هذا الذوق ينتشر في الفن منذ قابوس ورسائله ، بل نحن نغلو إذا نسبنا إلى قابوس ابتكاره ، فقد كان شعوراً عاماً في الحضارة العربية نفسها والحياة الفنية معها ، وآية ذلك أننا لا نكاد نعر على مجموعة من رسائل كاتب في هذا العصر حتى نجد بها شيات من هذا التصنيع ، وقد استمر ذلك دأب الكتاب حتى نفذ من بينهم بديع الزمان إلى كثير من سمات المذهب ، ثم جاء قابوس فأضاف سمات أخرى كما أضاف غيرها من الكتاب بعض شارات وشيات . ومن يرجع إلى اليتيمة يجد صناعة الألباز تدخل في النثر الكتابي^(١) ، وهي ضرب من ضروب التعقيد ؛ كما يجد أداة الجناس التي أخذت تتعقد تخصص لها بعض الكتب تتحدث عن أنواعها وأجناسها^(٢) . وأيضاً فإنهم كانوا يكثر من ترصيع رسائلهم بالشعر والأمثال والغريب ؛ وكل ذلك كان دليلاً على وشك جمود الحياة الفنية في النثر العربي وأنه أصبح لا مفر من أن يصل إلى حال غريبة من التعقيد .

ونحن لا نترك القرن الرابع قرن بديع الزمان وقابوس وأضرابهما إلى القرن الخامس حتى نجد هذا المذهب يعم في جميع كتابات الأدباء ، فقد أصبح

(٢) اليتيمة ٤/٣٩٦ .

(١) اليتيمة ٤/٣٥٣ .

هو البدع الحديد الذي يسعى إليه الكتاب كي يُطْرَفوا قراءهم بما يستحدثون من عُمْدته ، وقد بدأ هذا السعى أبو العلاء المعري بدءاً عنيفاً في آثاره ، إذ كان يفهم الفن على أنه عقد خالصة ، ثم جاء من بعده الحريري والحصكفي ، فأضافا إلى ورق اللعب في قصة هذه العقد أوراقاً ، وأدخلا في أشكالها الهندسية أشكالاً ، وسنفسر ذلك في الفصل التالي تفسيراً دقيقاً .